

جاكولين كارب*

متى ستأتين إلى إرتاح؟**

هذه المقالة عبارة عن وصف لمشاهدات ومشاعر شخصية خالجت الكاتبة جاكولين كارب في سياق رحلة في ماضي والديها: اليهودي العلماني، والمسيحية غير المتدينة، في فلسطين قبل النكبة. رحلة بدأت في سنة ٢٠٠٧، وأسستها مخطوطة كتاب وجدتتها الكاتبة بعد وفاة والدتها، الصحافية باريرا بورد، أول مراسلة خارجية بريطانية، تتحدث الوالدة فيها عن مشاهداتها في فلسطين، خلال الفترة ١٩٤٣ - ١٩٤٤، وانتهت في سنة ٢٠١٠، بتحوّل المخطوطة المكتشفة إلى كتاب^١.

والصفراء يمتد شمالاً في اتجاه حيفا وما بعد الخضيرة، البلدة التي تبدأ عندها هذه الحكاية.

كلماتي الأولى التي التقطتها من أحاديث والدي اليهودي العلماني مع والدتي المسيحية غير المتدينة مثله، كانت كلمات عربية، مع أنني لم أكن أعرف هذا في ذلك الوقت. والدي الذي أخرجته والداه من مدرسته في ليفربول وهو في الحادية عشرة من عمره، وأرسله إلى إعدادية زراعية قرب حيفا، كره مدرسته كثيراً، فكان يهرب من صفه، وتعلّم العربية، لا العبرية، من الفتيان الذين كان يلعب معهم كرة القدم في الشارع. وهكذا أصبحت كلمات مثل استنى شوي (انتظر)، وبعدين (فيما بعد)، ومعلّش (لا بأس)، هي كلمات العائلة،

تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٧

كنت أحدّق في الظلام؛ بعدها، وفي لحظة، انبسط تحتي ساحل بلاد الشام. لم أر أي إشارة إلى "المفرش الأخضر الملقى على أرض طينية حمراء"، أو "ناطحات السحاب المصغرة البيضاء المتلائة والمساجد ذات القباب الوردية" كما وصفتها والدتي عندما حلّقت طائرتها فوق يافا وتل أبيب في سنة ١٩٤٥. هذه قد تكون ميامي: خط متواصل من المصابيح الحمراء والزرقاء

* صحافية بريطانية مستقلة مقيمة في فرنسا؛ عضو الاتحاد الوطني للصحافيين في المملكة المتحدة، وعضو جمعية المؤلفين في المملكة المتحدة.

** ترجمة: ريم ديبّات.

متفرقة في الساحة الخلفية؛ وكذلك روث، من ترانسلفانيا، التي كانت شقيقتها على متن القارب ستروما الذي غرق في البحر الأسود وكان يحمل لاجئين؛ وقبل الجميع كان هناك الأم دوبروسكي، وهي عجوز بولندية كانت تجلس متدثرة بشال أصفر تندب ولدها الذي فقدته في الحرب الأهلية الإسبانية، غارقة في ذكرياتها عن الصبي الكاثوليكي الذي حرمها والداها من الزواج منه في وارسو، وكانت ترفض بعناد المشاركة في الاحتجاجات الصهيونية. وقد دفعته حماساً نينا لهذه الفصول الافتتاحية إلى البحث عن ناشر.

بحلول سنة ١٩٤٣ كانت باربرا بورد قد أمضت سبعة أعوام تكتب في شؤون الشرق الأوسط. إذ بدأت العمل في سنة ١٩٣٦ في صحيفة "الدائلي سكيتش" (*The Daily Sketch*) وهي في الحادية والعشرين من العمر، وسرعان ما أصبحت مراسلة الصحيفة في تل أبيب التي وصلت إليها في زمن عصيب، عندما بات تعايش العرب واليهود في ظل الانتداب أمراً صعباً، بسبب الأعداد المتزايدة لليهود الهاربين من أوروبا المحتلة من قبل النازية. وقد قامت بتغطية مؤتمر الطاولة المستديرة بشأن فلسطين الذي عُقد في لندن في سنة ١٩٣٩، وهناك أجرت حواراً مع أمير الأردن، ومع غولدا مائير التي أصبحت لاحقاً رئيسة حكومة إسرائيل. كما أنها كتبت كتابين عن تلك الحقبة هما: "مراسلة في فلسطين" (١٩٣٧)، (*Newsgirl in Palestine*)، و"مراسلة في مصر" (١٩٣٨)، (*Newsgirl in Egypt*)^٢ نشرهما مايكل جوزيف.

عادت والدتي إلى فلسطين في نيسان / أبريل ١٩٤٠ كي تعمل بشكل مستقل، بعد أن وقّعت عقداً لكتاب جديد. حملت مخطوطة الكتاب المنجزة معها داخل حقائبها

فضلاً عن إيوا (حسناً)، وشفتي (أرأيت)، وإمشي (سِرْ)، وشو (ماذا).
تقابل والدتي خلال فترة الانتداب، لكن الوضع السياسي في سنة ١٩٤٧ أجبرهما على الرحيل. وقد استمر في الحديث عن فلسطين كأنها الفردوس المفقود، لكنهما لم يعودا إليها مرة أخرى. وها أنا الآن أقوم برحلة في ماضيها من خلال كتاب سأصدره قريباً، وكانت والدتي كتبت تلك الفترة.

العودة إلى صيف سنة ٢٠٠٥

جاكلين، بعد أن وصلتني رسالتك الإلكترونية أعدت مراراً وتكراراً قراءة الفقرات الافتتاحية التي كتبتها والدتك، والتي تتحدث فيها عن بلدتنا. أنا سيدة عجوز من مواليد الخضيرية، ويمكنني القول إن والدتك تمتلك موهبة رصد فذّة، فوصفها لرياح الخماسين يفوق الثناء. الرجاء إرسال مزيد من الفصول، وفي هذه الأثناء أنا لا أزال أبحث عن السيدة البولندية التي ذكرتها.

كانت تلك الرسالة فاتحة مراسلات طويلة بيني وبين نينا رودين، أمينة متحف الخان في الخضيرية جنوبي حيفا. وقد بحثت نينا بلا كلل عن صور وتفاصيل الأشخاص الذين وصفتهم والدتي، المراسلة الحربية باربرا بورد، في الكتاب الذي بدأت بكتابته في الخضيرية في سنة ١٩٤٣، وتحدثت فيه عن لاجئين يهود تشاركت معهم الفندق الصغير نفسه، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر أخباراً عن عائلاتهم المقيمة في أوروبا. وكان بينهم كورت، خباز من فينا، وهو مالك الفندق الذي كان يمضي وقته بالقيام بأعمال صغيرة



باربرا بورد مع أمير الأردن

الاقتباسات الصحافية العديدة الموجودة في الكتاب. وقد وجدت نينا صورة يعود تاريخها إلى الثلاثينيات لفندق عوفير الذي عاشت فيه والدتي، فأصبحت صورة الغلاف الأمامية لكتاب *Reporting from Palestine, 1943-1944*.

كنت أيضاً في حاجة إلى صور توضيحية لمكان آخر. فمن شقتها في الطبقة العلوية، كانت والدتي تراقب وصول الفلاحين العرب يومياً بجلابيهم المقلّمة وكوفياتهم الزاهية قادمين من الهضاب الجنوبية على الجمال والحمير المحمّلة بالمنتجات الطازجة. تذكر في الفصل الرابع من كتابها كيف تمت دعوتها، قبل مغادرتها الخضيرة من أجل العمل في القدس، مع أصدقاء يهود لم تذكر أسماءهم، إلى قرية إرتاح، وهي قرية تبعد ١٢ كيلومتراً تقريباً عن مدينة طولكرم التي تُعدّ مزرعة خضروات فلسطين. رعى والدي بيارة برتقال قرب باردس

وغادرت إلى إنجلترا في كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٤، لكن مايكل جوزيف رفض نشر الكتاب بحجة التقنين في استهلاك الورق الذي فرضته الحرب. وجدتُ المخطوطة عندما توفيت والدتي في سنة ١٩٨٦، وكانت عبارة عن رزمة سميكة من الأوراق السمراء من قطع الربع، وفيها تروي والدتي تجربتها في زمن الانتداب من سنة ١٩٤٣ إلى سنة ١٩٤٥، وقد حاولتُ نشره لكني لم أفلح.

تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٧ مرة أخرى

وجدت ناشراً في سنة ٢٠٠٧، عندما تحوّلت الأنظار نحو الشرق الأوسط بعد الانتفاضة الفلسطينية الثانية، وكنت في حاجة ماسة إلى صور توضيحية وهوامش، علاوة على حاجتي إلى مَنْ يقرأ لي الصحف العبرية والعربية من أجل تحديد تواريخ

وبعد ثلاث أو أربع رسائل وصلتني صورة ابن المختار، وكان مرفقاً بها سؤال: "متى ستأتين إلى إرتاح؟" القرية التي كانت حتى ذلك الحين مجرد اسم مكتوب على صفحة من مخطوطة مسمّرة، أصبحت فجأة حقيقية. كان هناك ركود في الشرق الأوسط، لكن مؤتمراً أنابوليس بات على الأبواب، الأمر الذي يعني أن السفر بعده ربما يكون أصعب. فجأة أصبح الأمر ملحاً، فسارعت إلى الاتصال بأصدقائي الإسرائيليين والفلسطينيين، أجل لديّ أصدقاء من الطرفين، وبعدها بأسبوع، في ١٢ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٧، كانت طائرتي تحطّ في مطار بن - غوريون. استغرقت الرحلة إلى القدس ساعة من الزمن في حافلة أجرة مترججة. كان فندق المبيت والإفطار الذي حجزت فيه يقع في قلب القدس الأورثوذكسية، قريباً من محطة حافلات إيجد (Egged)، التي لا تبعد كثيراً عن مكتبة الجامعة حيث كنت أعمل. كان هنري ومجدلينا رفيقيّ في وجبة الإفطار، وقد أتيا لزيارة "ياد فاشيم"، النصب التذكاري للهولوكوست، وتجديد ذكرى أفراد العائلة الذين لقوا حتفهم. أمّا أنا فلم يكن في وسعي سوى التفكير بفندق عوفير. مساعدتي في القراءة من العبرية هو المؤرخ المقدسي أميتاي سبيتزر. التقينا خارج المكتبة الوطنية ثم ذهبنا للعمل في قسم الصحف الكبير. كانت لغتي العبرية جيدة بالقدر الكافي لحل شيفرة أسماء الصحف: "يديعوت أحرونوت"، "هيوكر"، "دافار"، أمّا ما تبقى فكان على أميتاي أن يقوم به. لقد كان مهتماً بحكاية والدتي، لكن الصحف العبرية في الأربعينيات سحرتة أكثر منها. وكلما انتقلنا إلى مجموعة جديدة من الصحف، كان يبدأ بسرّ الأخبار فيها عن القضايا المعروضة على المحاكم، ويشير

حنّا امتلكتها عائلته (التي كانت تعيش في ليفربول). هل كان يستخدم عمّالاً عرباً في البستان؟ أنا متأكدة أنه فعل هذا، الأمر الذي ربما يفسر تلك الدعوة التي تلقّتها والدتي. كان والدي مسؤولاً عن العمال العرب في شركة بيونيير (Pioneer)، وكان يشعر بالحزن بسبب منع اليهود العمال العرب من العمل في المزارع. وفي نهاية الأمر اضطرت العائلة إلى بيع سيارة البرتقال بسبب ضغط الهاغانا.

في أي حال، فإن الجزء الأهم من الحوار الذي دار ذات أمسية من سنة ١٩٤٣ في فناء دار مختار القرية، كان مع حسن أبو عيسى بشأن موضوع أثير لدى والدتي. فقد رأى أبو عيسى أن الاضطرابات بين العرب واليهود في ظل الانتداب ليست خطأ الناس، إذ لم تُتَح لهم الفرصة للتعبير عن أنفسهم، وألقى باللوم على القادة من كلا الطرفين الذين كانوا يخافون "أن تنهار أراضيهم السياسية تحت أقدامهم". ففي رأيه كان يمكن للعرب واليهود أن يعيشوا بسهولة جنباً إلى جنب.

قادتني عملية بحث في الإنترنت إلى التواصل مع أمين سجلات بلدية طولكرم، فأرسلت له وصفاً لتلك الأمسية. ومثلما حدث مع نينا، تلقيت جواب عبد الجبارة مباشرة:

جاككين، تأثرت كثيراً بمقالة والدتك بشأن إرتاح، لقد عرضت لي صورة حقيقية لتلك الحقبة من الزمن التي سبق أن سمعت رواية جدي وجدتي عنها، والتي طبعاً لم يكن مسموحاً لنا التعرف إليها في المدرسة. لقد نقلت صورة واقعية لثراء هؤلاء الناس وحسن ضيافتهم وكرمهم.

في رام الله، كان الأستاذ الجامعي يوسف أبو سمرة، المدرّس في جامعة بير زيت، هو مساعدي في القراءة العربية. استقبلني وكانت بصحبته زوجته الفرنسية كلود، وقد قرأت علائم الارتياح في وجهيهما بمجرد أن رأيتهما. وما إن وصلنا إلى المنزل حتى قام يوسف بالتهام جميع حبات الثمار في كيس الجوافة الذي حملته، فهو لم يرها منذ زمن بعيد.

صباح اليوم التالي، ذهبنا مشياً لنستقل الحافلة. "لقد بعث سيارتي"، قال يوسف موضحاً وهو يشير إلى ثقب الرصاص في مدخل العمارة حيث يقطن، والشقوق التي أحدثتها الدبابات في الأفاريز. ثم تابع قائلاً: "لا يوجد أي مكان نذهب إليه، إنهم يقيمون حواجز جديدة كل يوم. أمّا بالنسبة للشاطئ، فنحن لم نذهب إلى البحر منذ قيام السلطة الفلسطينية في سنة ١٩٩٤".

كانت مكتبة الجامعة أول مكان اصطحبني إليه يوسف، وهناك وجدنا على الرفوف الكتاب الأول لوالدتي: *Newsgirl in Palestine*. وبعد صباح أمضيانه في مشاهدة ميكرو فيلم عن فلسطين والصفحة، ازدادت حماسة يوسف، تماماً مثلما حدث مع أميتاي. لقد كان يلقي نظرة خاطفة على عالم ودّعه مذ كان طفلاً يخطو خطواته الأولى، فهو ولد في عين كارم حيث يقع اليوم النصب التذكاري "ياد فاشيم"، وحيث عاشت أسرته حتى شهر تموز / يوليو ١٩٤٨، ولهذا سمى ابنه كارم تيمناً باسم قريته الضائعة.

إذا جربت أن تسأل كم يستغرق الطريق للوصول من رام الله إلى طولكرم بسيارة الأجرة، سيكون الجواب: ضحكة. فهذا يعتمد على نقاط التفتيش والحواجز الطيارة. بالنسبة إليّ، فإن قطع مسافة ٩٠ كيلومتراً استغرق ساعتين من الزمن، لقد

إلى الإعلانات القديمة ويشرح الرسوم الكاريكاتورية، فهذا هو العالم الذي عرفه في طفولته. لقد تذكّر، كما فعل الكاتب عاموس عون، كيف كان يلعب مع جيرانه العرب، وعبر عن خيبة أمله من مجموعات النقاش العربية - اليهودية الحالية: "لسنا بحاجة إلى الحديث مع أولئك الذين يتشاركون الأفكار نفسها، لكننا لم نلتق قط بمن ليسوا كذلك". في نهاية الأسبوع، أخبرت رفاقي في الفندق أنني سأغادر إلى رام الله. فقال لي هنري، وهو من لندن وأحد الناجين ضمن عملية كايندر ترانسبورت (Kinder Transport)؛ "إنها غير آمنة". وقد حاول العديد من النزلاء الآخرين ثنيي عن الذهاب، لكن هذا الأمر لم يقلقني، كما لم يقلق أميتاي الذي رافقني حتى نهاية طريق يافا حيث توقف قائلاً: "فقط استمري في السير حول أسوار المدينة، إلى ما بعد بوابة دمشق، وستجدين حافلات الركاب المتجهة إلى رام الله في الجانب البعيد من السوق". لم يكن هناك أي حواجز، ومع ذلك فإن أميتاي يفضل عدم الذهاب إلى بوابة دمشق. اشتريت فاكهة من سوق الشارع، وركبت الحافلة رقم ١٨ الملأى، في معظمها، برجال عائدین إلى رام الله. وبمجرد مغادرتنا المحطة، بدأ شاب يهودي أورثوذكسي بالسباب، وكان يستقل حافلة تسير جنباً إلى جنب مع الحافلة التي تقلنا، بينما حاول آخر الوصول إلى امرأة سائقنا. عبرت حافلتنا القدس الشرقية في ظلال الجدار الأسمنتي الرمادي المرتفع الذي كثيراً ما شاهدته على شاشة التلفزيون، لكن رؤيته على أرض الواقع تجربة جدية. عند نقطة التفتيش نزل جميع المسافرين واصطفوا خارجاً ثم عادوا جميعهم إلى الحافلة، أمّا أنا فجواز سفري الأوروبي أبقاني في مقعدي فشعرت بالإحراج من هذا الامتياز.

في ذلك المساء، أخذني عبد إلى قرية إرتاح. ذهبنا واسترقنا النظر من فوق الجدار إلى محطة القطارات القديمة في طولكرم، والتي كانت في يوم من الأيام صلة وصل رئيسية ما بين إستانبول والقاهرة. وبعدها أوقفنا السيارة أسفل المنحدر حيث فرش القرويون القش قبل ستين عاماً ترحيباً بوصول والدتي. كان في انتظار رجل في الثالثة والثمانين من العمر هو ابن المختار الذي دعا والدتي إلى القرية. قرأ عبد ترجمته لما كتب عن تلك الأمسية أمام حشد من العائلة والأصدقاء كباراً وصغاراً تجمعوا في فناء دار المختار حيث جلست والدتي يوماً. استمعت بدوري، وتنقلت في المكان، وكنت مذهولة بما يمكن للإنترنت أن يحققه. ترحيبهم بي منحني الأمل. تقع في أعلى القرية منازل الأستاذ الجامعي عزمي العيسى وأشقائه الثلاثة،

كنت محظوظة. التقيت عبد واصطحبني في جولة حول طولكرم، ومحطتنا الأولى كانت في المكتبة العامة حيث الرفوف فارغة تستجدي الكتب. "نحتاج إلى كل شيء"، قالها بحسرة أمين المكتبة ابراهيم زقوت، "نحتاج، بصورة خاصة، إلى الكتب العلمية، علوم الكمبيوتر والرياضيات والهندسة المعمارية، فهي تخضع للتحديث بسرعة." محطتنا التالية كانت في جامعة خضوري، وقد كانت يوماً مدرسة زراعية معروفة على مستوى الشرق الأوسط. "كان علينا تغيير رؤيتنا بالكامل"، قالها لي رئيس الجامعة مشيراً إلى بيوت بلاستيكية يعلوها الصدا، وإلى حقول مهملة يقسمها في منتصفها جدار فيه أبراج مراقبة. ثم أكمل قائلاً: "لقد تحولنا إلى علوم الكمبيوتر والتكنولوجيا. لا أريد أن يصاب طلابي بطلقات نارية في الحقول."



عبد جبارة يقرأ ترجمة من مخطوطة كتاب *Reporting from Palestine* وأمامه ابن مختار قرية إرتاح مستمعاً

التي تشرف مباشرة على سهل شارون،^٦ عند أضيق نقطة في الجانب الإسرائيلي. قال لي عبد: "لقد راجعنا عائلات القرية كلها، ونعتقد أنهم من عائلة حسن أبو عيسى الذي تحدثت عنه والدتك."

جلوساً حول مائدة من الكفتة بالبندورة الشهيية وأقراص الخبز الطري، حدثني الإخوة الأربعة عن حياتهم. اثنان منهم أستاذان جامعيان عاداً من الولايات المتحدة كي يؤسسا حياتهما على أرض الوطن، وكان هذا قبل تشديد شروط الإقامة. يعمل أحدهما الآن في جامعة نابلس، وقد قال لي: "أتمنى أن أتمكن من الذهاب إلى العمل والعودة يومياً." وأضاف: "لا يمكنك أن تتخيلي كم يلزم من وقت للوصول، مع أن المسافة هي ٢٥ كيلومتراً فقط، لهذا كان عليّ شراء شقة في نابلس للإقامة هناك والعودة إلى بيتي في عطلة نهاية الأسبوع. الأمر مرهق من الناحية المادية." عرفتُ إذاً لماذا لم يكتمل بناء المنزل الذي كنا نتناول العشاء فيه. أدار الأخ الثالث ما تبقى من شركة

حافلات يملكها والد زوجته. منذ جيلين كانت حافلاتهم تنقل الحجاج على الطرقات الرئيسية للإمبراطورية العثمانية من إستانبول إلى مكة. قال لي: "إدارة الأعمال التجارية هنا أمر مستحيل"، ثم أردف مكملاً: "اشتريت حافلات جديدة من ألمانيا، والآن بدأت أحتاج إلى قطع غيار لها، فهل يمكنني شحنها إلى عمان؟ لا، عليّ الذهاب بنفسني إلى تل أبيب لأحضرها. الذهاب إلى هناك والعودة، بوجود نقاط التفتيش، أمر فيه عناء كبير. فأنا لا أحمل تصريحاً للمبيت." هل يظن أن هناك أملاً بتفاهم اليهود والعرب؟ ليس بعد. تزوج أحد أفراد عائلتنا فتاة يهودية، وكان على الزوجين، كي يعيشا معاً، الرحيل إلى بلجيكا.^٧ بقي أخ آخر للعمل في مزرعة العائلة،

وقد دلّني عليها مشيراً إلى الجدار قائلاً: "إنها شرقي خط الحدود، ولهذا خسرنا الأرض، وليس في قدرتنا حتى جني ثمار ما تركناه فيها، كما أن أبارنا تقع اليوم في الجانب الآخر." ثم تابع قائلاً: "كان لنا فيما مضى أصدقاء يهود يمنيون كانوا سعداء لأنهم يتكلمون العربية، وكانوا يحضرون أعيادنا، ونحن بدورنا نحضر أعيادهم. عندما بُني الجدار على أرضنا، خسرت محاصيلي، لكنني لم أخسر جيراني اليهود الذين اتصلوا بي هاتفياً ليقولوا لي أنهم جنوا المحصول، وأنهم قادمون إلينا لإحضاره. ملأنا سياراتنا بالفاكهة التي أحضروها من بساتينا، وتبادلنا الغلال عند نقطة التفتيش. كانت تلك آخر مرة نلتقيهم فيها. لا نزال نتواصل هاتفياً، لكننا نكبر بعيدين عن بعضنا البعض، فالسيارات لا يمكنها عبور نقطة التفتيش هذه، وأولادنا لن يعرفوا أولادهم." أخذني عبد إلى أمام البيت وأشار لي غرباً في اتجاه الخضيرة، وأراني الطريق الذي سلكته والدتي تلك الليلة في سنة ١٩٤٣. نظرت إلى الأسفل نحو منطقة نقطة التفتيش، وراقبت عدداً ضئيلاً من العمال الفلسطينيين العائدين من الجانب الإسرائيلي سيراً على الأقدام بمحاذاة الجدار الأسمنتي العازل الذي يمتد طويلاً مقسماً الطريق القديم إلى طريقين. "أتعلمين؟ لا يمكننا تأكيد أن الأشخاص الذين تعشيت معهم ينحدرون مباشرة من حسن الذي تعرفه والدتك"، قال لي عبد، "لكن حتى اليوم، يوجد كثير من الأشخاص مثل حسن، الذين يريدون العيش بسلام مع اليهود...."

عرض عليّ أن يجد لي سيارة أجرة في الجانب الإسرائيلي كي تقلّني إلى الخضيرة، فرفضت. كان على أطياف كورت والأم العجوز دوبروسكي الانتظار. لم أشأ الرحيل من دون استكشاف القدس



جلسة قهوة لجاكولين كارب مع نساء عائلة عيسى بعد الغداء

القديمة، ويوم زرت الخليل، وكانت رحلة الحافلة المتجهة إلى المدينة لعدم وجود عدد كاف من المسافرين قد ألغيت، أقنعت سائق أجرة عربي بأن يقلني مع أنه كان غير راغب في ذلك. وما إن تجاوزنا نقطة التفتيش العسكرية، وبعد مشقة التواصل مع الإسرائيليين من أصول روسية، وجدنا أنفسنا محاطين بسائقي أجرة من الضفة الغربية غاضبين يتهمون سائق السيارة الذي يرافقني بأنه يسرق زبائنهم. عبرت مدينة الخليل سيراً على الأقدام، وكنت السائحة الوحيدة على الطريق، فرشقني طفل صغير بالحجارة، لكن كلماتي "استنى شوي" و"إمشي" كان لها تأثير مدهش. في الجانب البعيد من السوق الفارغة توجد نقطة تفتيش إسرائيلية تفضي إلى ساحة مهجورة فيها كثير من الأسلاك الشائكة، وجنديان إضافيان. خرج بائع من محل التذكارات ليرحب بي، لقد كنت أولى زبائنه من السياح

الشرقية أيضاً. دفعت حسابي في الفندق اليهودي، وركبت سيارة أجرة للقيام بجولة داخل المدينة. عند وصولنا إلى طريق نابلس، صاح السائق: "لماذا أنت ذاهبة إلى هناك؟ هذا خطر في رأيي."

قلت له: "أتركني هنا، سأمشي." لم أضطر إلى أن أعيد ما قلته مرتين، فقد أوقف السيارة جانباً على الفور، فدفعت له الأجرة، وأخذت أمتعتي من صندوق السيارة - لم يتحرك، ولا بأي شكل - وانطلقت أبحث عن فندق.

كنت قد اعتدت على حالات الذعر المفاجئة التي تصيب مرافقي الذين كانوا يخافون عليّ، ويخافون على أنفسهم أيضاً. وعلى الرغم من ذلك، فإن القلق لم يساورني طوال الأسابيع الماضية التي قضيتها أتنقل جيئةً وذهاباً من أجل إتمام بحثي الخاص بكتاب والدتي. لقد مشيت وحيدة بعد حلول الظلام في الشوارع الخالية في القدس



مدخل السوق القديمة في الخليل

في ذلك اليوم.

سألته: "كيف تستطيعون الاستمرار في الحياة؟" تنهد قائلاً: "ماذا تريدنا أن نفعل؟" وأضاف: "نحن نتبادل أطراف الحديث ونحتسي القهوة معاً! كلهم يمنيون، ولا أحد سوى اليمنيين يأتي هنا، هم يملّون بقدر ما نملّ نحن. جميعنا نتحدث العربية، وتسير الأمور على ما يرام." اشتريت من متجره جملين منحوتين من خشب الزيتون، وأصرّ بعدها على أن يرافقني عبر السوق، وأن يقلّني إلى محطة الحافلات الواقعة في مكان ناء من المدينة. كنا أربع نساء في رحلة العودة، أنا وثلاث غيري ذاهبات إلى زيارة عائلية.

الفندق الذي وجدته بنفسه والمجاور لبوابة فلسطين كان مكاناً مثالياً من الطراز القديم، بأثاثه النحاسي المحفور وشرفته

المظللة بعريشة العنب. خلال وجبة الفطور في آخر صباح لي هناك، كان ثمة رجل خمسيني جالس من دون أن يأكل، كان ينتظر فقط. بعد برهة دخل رجل آخر حاملاً أكياساً بلاستيكية ملاءى، جلسا متجاورين، رأساهما إلى الأسفل وكانا يتحدثان همساً. كان أحدهما يُخرج أدوية ويشرح للآخر بحذر استخدام كل منها. راقبت وأنا مأخوذة بما يجري، فقد افترضت أن طبيباً أو صيدلانياً من القدس الغربية كان يسلم زميله العربي كيساً تلو الآخر.

فكرت في أميتاي وعاموس عون، في عبد وعائلة حسن أبو عيسى، في تلك الأرض الحزينة التي أحببتها والدتي كثيراً، والتي رفضت الانحياز من أجلها إلى أي طرف. في النهاية، هناك بارقة أمل: عربي ويهودي يعملان معاً. ■

المصادر

- ١ Barbara Board, *Reporting from Palestine, 1943-1944*, edited by Jacqueline Karp (Nottingham: Five Leaves Publications, 2010).
- ٢ Barbara Board, *Newsgirl in Palestine* (London: Michael Joseph, 1937).
- ٣ Barbara Board, *Newsgirl in Egypt* (London: Michael Joseph, 1938).
- ٤ كايندر ترانسبورت (Kinder Transport) هو اسم يُطلق على عملية إنقاذ آلاف الأطفال اليهود من اضطهاد النازيين في ألمانيا والنمسا. (المترجمة)
- ٥ جامعة فلسطين التقنية. (المترجمة)
- ٦ سهل شارون هو السهل الساحلي بين حيفا ويافا. (المترجمة)

.....

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(القضية الفلسطينية / آفاق المستقبل - ١)

إضاءة على مأزق

النخبة السياسية الفلسطينية

جميل هلال

١٢١ صفحة ٨ دولارات

.....